الفصل الرابع

جواسيس القنبلة الذريّة

تلقى معظم الناس في الغرب أنباء انتهاء الحرب في أوروبا في عام ١٩٤٥ بالفرح والإستبشار ، لكنّها لم تكن قد انتهت بالنسبة للجواسيس وسادة الجاسوسية ـ إذ نشبت حرب جديدة ضِدَّ عدوٍ جديد . . .

الدكتور ألان نان ماي : العَالِم الخائن

انتاب القلق إيغور سيرجيفيتش غوزنكو . فبعد عامين عمل خلالهما كموظف شيفرة رئيسي لدى الملحق العسكري بالسفارة الروسية في أوتاوا ، كان على وشك أن يُطلب منه العودة إلى موسكو ثانية . وعرف بأن الحياة هناك لم تكن لتقارن بحياة البذخ والحريّة ، التي كان يتمتع بها هو وزوجته سفيتلانا وابنه الصغير اندريه ، في كندا . فبدأ غوزنكو يأخذ سرّاً نسخاً من الوثائق التي كانت في متناوله ، ليؤمن حماية له في بلده الجديد . وكانت محتويات تلك الوثائق ستصيب كلاً من حكومات كندا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية بصدمة كبيرة ، وتفضح ما وصف لاحقاً

بكبرى خيانات العصر ـ عن جواسيس القنبلة الذريّة كلاوس فوخس وألان نان ماي وجوليوس وإيثيل روسنبرغ .

بدأ السباق لتطوير القنبلة الذريّة في عام ١٩٣٨ ، عندما كشف النازحون من ألمانيا النازية النقاب عن أنّ الكيميائي أوتوهان قد استطاع تحرير طاقة هائلة عندما شَطَر نواة ذرّة اليورانيوم بنجاح . وبملاحظة الرعب الذي كان سيحدثه تواجد سلاح فتّاك كهذا بين يدي هتلر ، فقد أعدّ رئيس الوزراء البريطاني على الفور برنامج أبحاث هام ، وأرسل فريقاً من المقاتلين الإنتحاريين إلى النرويج لتدمير مصنع كهرباء هيدروليكي يُنتج المياه الثقيلة اللازمة لخبراء القنبلة الذريّة لوضعها تحت سيطرة النازيين . واتفقت بريطانيا وأمريكا على توحيد مصادرهما العلمية ، في عام ١٩٤٢ ، للإسراع بإنتاج أكثر أسلحة العالم إبادة . كما اتفقتا على عدم مشاركة تقدمهما مع الكريملين ، حسب اقتراح تشرتشل ، ورغم أن روسيا كانت حليفاً في فترة الحرب .

وكان الضوء المبهر والإنفجار الرهيب ـ الذي سُمِعَ من على بُعْد ٢٠٠ ميل (٣٢٠ كم) ـ وارتفاع غيمة الدخان المتعدد الألوان إلى علو ٤٠٠٠٠٠ قدم فوق صحراء ألاموغوردو في نيومكسيكو في ٢ تموز ١٩٤٥ ، إشارة على نجاح الفريق الأمريكي الإنكليزي المشترك . وبعد أقل من شهر واحد ، قصفت طائرة حربيّة أمريكية ، في ٦ آب ، مدينة هيروشيما اليابانيّة بالقنبلة الذريّة الجديدة ، فقتلت ٧٨١٥٠ شخصاً ، وأنهت الحرب في المحيط الهادي . . ووصفها الرئيس الأمريكي هاري ترومان بأنها «أعظم شيء في التاريخ» .

لم يبق شعور الحلفاء بالنصر مدة طويلة ، فأثناء ما كان المبعوثين البريطانيين في مدينة أوتاوا يُحضرون لإقامة احتفال بالنصر في حديقة السفارة ، حاول إيغور غوزنكو تسليم وثائقه . لم يُرد أحد أن يعرف شيئاً عنها في البداية . وصرّحت الصحف المحليّة بأنها كانت خطيرة جداً فلم يقدروا على تحمّل المسؤوليّة . . ومنعه الموظفون في دائرة العدل والشؤون الخارجية من تنبيه رئيس الوزراء و . ل . ماكنزي . ثم تقرّر المخاطرة بقطع العلاقات الدبلوماسية مع روسيا بعدما قدّروا قيمة الوثائق التي قدّمها غوزنكو ، والخطر المحتمل من جرّاء إعادته إلى الناس الذين حاول خيانتهم . وبعد الامساك بأربعة من رجال الأمن السوفييت وهم

Clement Attlee

ـ كليمنت اتلي :

يحاولون اقتحام شقة غوزنكو ، انتقل هو وعائلته إلى مخبأ محمي . وبعد دراسة الوثائق التي عرضها بشكل جدّي تبيّن ما يلي :

١ ـ كان سكرتير الدولة الأمريكي إدوارد ستيتينوس محاطاً بالجواسيس .

٢ ـ كان نائب القنصل السوفييتي أناتولي ياكوفيليف يدير شبكات تجسس معقدة من نيويورك ، ويرسل الأسرار العسكرية إلى الكريملين ، ويؤمن الأموال اللازمة للعمليات الأوروبيّة ويتحكّم بعملائه في واشنطن عن طريق المراسلة إليزابيث بنتلي .

٣ ـ تسلّل إلى كندا ٢٠ عميلاً سوفيتياً على الأقل ، بما فيهم اثنين من العاملين في مجال الشيفرة اللاسلكيّة هما : إيما فويكن ـ العاملة في إدارة الشؤون الخارجيّة الكندية ـ وكاي ويلشر ـ العامل في الهيئة البريطانية العليا في أوتاوا ، والتي كانت على اطّلاع وثيق بجميع الرسائل السريّة للغاية . وكانت الطامة الكبرى أن اثنين من البريطانيين العاملين على صنع القنبلة الذرية في مخابر أبحاث أمريكا الشماليّة كانا عميلين سوفيتيين ، وقد سرباً موادا سريّة وحسابات إلى الروس .

كان رئيس حزب العمال كليمنت أتلي يدير مجال العمليات السرية للكنديين الذين استلموا بسرعة أنباء قصف البيت الأبيض والشارع ١٠ داونينغ . كان تشرتشل قد أشار طيلة فترة الحرب بعدم الثقة بستالين والروس ، وثبت الآن بأنّه كان مصيباً في رأيه . فبعيداً عن الصداقة القديمة ، بدا أن السوفييت كانوا يُعدّون أنفسهم لحرب جديدة . وعندما بدأ رجال مكافحة الجاسوسية في البلدان الثلاثة يتحققون من المعلومات التي قدمها غوزنكو . لم يجد القادة الثلاثة ـ ماكنزي لينغ وترومان وآتلي ـ مناصاً من تحمّل المسؤولية كاملةً . وكانت أعين مسرّبي أنباء القنبلة الذريّة مفتوحة .

عرف غوزنكو أسماء العلماء الخونة الحركيّة فقط ـ أليك وغوليا . فتم التعرف على أليك بسرعة ؛ بفضل برقية أُرسلت إلى موسكو من قِبَل رئيس سفارة كوزنكو ، نيكوليا زابوتين ـ الذي كان ملحقاً عسكرياً في الظاهر وجاسوس عامل في كندا لصالح روسيا في الواقع . وتبيّن أن أليك كان سينتقل للعمل في كليّة كينغ في ستراند بلندن . كما أظهرت تحريات قسم الطاقة الذريّة في معامل الأبحاث بفرع مونتريال أنّ الدكتور ألان نان ماي ، الفيزيائي البريطاني الذي ذهب للغرب للإنضمام لبرنامج الحلفاء النووي ، في كانون الثاني من عام ١٩٤٣ ، كان سيذهب إلى لندن .

وحيث أنّ البرقية كشفت عن تفاصيل لقاء ، أُعدّ له مسبقاً ، سيتم بين نان والمراسل الروسي في لندن ، فقد قررت السلطات أن تدعه يستلم عمله الجديد ؛ على أمل الإيقاع بجواسيس سوفييت آخرين . كان على نان ماي أن يقف أمام المتحف البريطاني في ٧ تشرين الأول وهو يحمل نسخة من جريدة «التايمز» تحت

ابطه الأيسر ، وكان رجل الإتصال ـ الذي سيحمل مجلة «البريد المصوّر» في يده اليسرى ، سيطلب منه أن يَدله على أقصر طريق لمنطقة ستراند . وكان على العَالِم أن يدله ويقول له مضيفاً : «مايكل يهديك خالص تحيّاته» .

لم يحافظ نان ماي على موعد اللقاء السري . وقال للمحققين فيما بعد : «لقد قررت آنئذٍ أن أنفض يداي من هذا العمل كلّه» . لكنّ رجال فرع الاسكوتلانديارد الخاص اعتقلوه في ١٥ كانون الثاني ١٩٤٦ لأنّه كان يسأل عن الجواسيس الذين فضح غوزنكو أمرهم . وأنكر كلّ الإتصالات في البداية . لكن ما أن ووجه بالدليل الحاسم عن اتصاله بالعملاء السوفييت حتى اعترف بتقديمه معلومات وعيّنات يورانيوم إلى الروس مقابل «بعض الدولارات (نسيت مبلغها) وزجاجة ويسكي قبلتها رغماً عنّي» . وأضاف : «كان العمل بمجمله مؤلماً لي بدرجة كبيرة ، وقد تورطت فيه فقط لأنني شعرت أنها مشاركة أستطيع من خلالها ضمان سلامة الجنس البشري ، وبالتأكيد فأنا لم أنوِ الربح من وراءه» .

شرح جيرالد غارديبر ـ محامي الدولة الذي دافع عن نان ماي ـ دوافع موكلّه مطوّلاً خلال محاكمته في محكمة أولد بايلي في أيار من عام ١٩٤٦ . وقال بأنّ بعض العلماء ـ كما الأطباء ـ «يصيبون أو يخطئون إذا اكتشفوا شيئاً فيه فائدة لبني البشر ، لأنّهم يلتزمون باستخدامه في صالح الجنس البشري ، وعدم إبقائه في حوزة جماعة معينة من الناس» . وأضاف المحامي قائلاً : «إنّ الروس كانوا حلفاء أثناء ارتكاب الفعل ، ولم يُشر إليهم أحد على أنهم أعداء» .

لكنّ القاضي السيد أوليفر لم يأخذ بكُلّ ما قاله المحامي . فرفض الإقتناع بتصوير نان ماي على أنه «الرجل الشريف الذي فعل ما اعتقد بأنه في الصالح العام» . وأوضح بأنّه اقتنع بالإتهام الموجّه من النائب العام السير هارتلي شوكروس ـ الذي وصف العمل بأنه «قضيّة لا أخلاقيّة نوعاً ما» لرجل رأى نفسه أهم من قوانين وسياسة بلده . وحكم القاضي على الخائن بالسجن لمدة عشر سنوات قائلاً بأنه أبدى «تصرفات حمقاء وشريرة» بإفشائه «أحد أكثر أسرار الدولة أهمية» .

وفي كندا فرّ الجواسيس السوفييت عائدين إلى موسكو .

وأثناء ما طوّق رجال الشرطة الأشخاص المشبوهين الذين حدّدهم كوزنكو وقدموهم إلى المحاكمة ، خرجت زوجته من مخبأها لتدخل المشفى حيث وضعت مولودها الثاني ، وكانت المولودة بنتاً . وقد تمّ إدخال الزوجة إلى المشفى على أنها زوجة مزارع بولوني مهاجر ، وزارها زوجها المحبّ في المشفى ـ وكان أحد رجال قوى الأمن الكندية الملكيّة ، تلقى دروساً في فن التحدّث باللغة الإنكليزية المكسّرة .

استقرّ غوزنكو وسفيتلانا والطفلين فيما بعد ـ بأسماء مستعارة وتحت حماية الشرطة العسكرية الكندية الملكية ـ في منزل بكندا معروف لقلة من الناس . وعلى مدى السنوات التالية ، لم يظهر إلاّ في المناسبات على شاشة التلفزيون ليعلّق على أعمال أحد الجواسيس المشينة ، وقد عُتّم عليه دائماً كي لا يتعرّف على شخصيته أحد . كما خطّ كتابين بالإعتماد على تجاربه . لكن قبل نشرهما بفترة كان رجال مكافحة الجاسوسية يُطبقون على العَالِم الخائن الآخر ، غوليا . فحققت المحكمة الكندية مع البروفسور عزرا هالبرين ، الذي كشف تجسّسه كوزنكو ، ولدى استجوابه اكتشف عملاء الحكومة اسماً ملفتاً للنظر في دفتر عناوينه .. كلاوس فوخس .

تمّ إطلاق سراح الدكتور ألان نان ماي من سجن ويكفيلد في ٢٩ كانون الأول ١٩٥٢ . وقرر مجلس الشعب البريطاني حرمانه من استعادة سلوكه الجيد ومركزه ، وإبقائه محتجزاً حتى عام ١٩٥٦ . إذ خافوا أن يذهب بخبرته إلى ما وراء الستار الحديدي . لكن نان ماي كان قد تعلم من درس الماضي . فعاد إلى كامبريدج ، حيث نال قبل سنوات الدرجة الأولى المزدوجة بامتياز وعبقرية ، وأجرى أبحاثاً على نظائر المعدن حتى عام ١٩٦٢ ؛ عندما ذهب إلى افريقيا ليصبح بروفسوراً في الفيزياء في جامعة غانا .

إيميل كلاوس فوخس: الجاسوس النووي

اعتُبر إيميل كلاوس فوخس أكثر جواسيس الذرة أهمية بالنسبة للروس ؛ وأكثرهم خيانة للغرب . إذ أنّه خان أولئك الذين وثقوا به ، فتطوّع لتقديم خدماته الجاسوسية ـ بعدما كان قد قَبِلَ اللجوء إلى بريطانيا للحصول على الحماية ـ وأعطى الكرملين أسرار صُنْع القنبلة الذريّة .

وُلد فوخس ، العالِم الذري والكتوم ، في ٢٩ كانون الأول ١٩١١ ـ بعد مولد ألان نان ماي بثمانية أشهر ـ في قرية روسلشيم قرب درامستادت . كان والده رجل دين بروتستانتي ، لكن تنشئة الصبي الفقيرة جعلته ينضم إلى الحزب الشيوعي . وقد تعرّض في جامعة كيل للإضطهاد من قبل ذوي القمصان السمراء[1] بسبب معتقداته .

وفي ٢٧ شباط ١٩٣٣ ، أحرق عملاء هتلر مبنى البرلمان الألماني ، واعتبروا الشيوعيين مجرمين . وكان ذلك مقدمة لحملة تمشيط وحشيّة . فهرب فوخس ، الذي كان في برلين يَحضُر مؤتمراً ، فوراً باتجاه باريس . ثم اتصل بعائلة كواكر في سومرست ؛ عن طريق صديقة ابن عمّه . فوجهوا له دعوة لزيارة انكلترا ؛ حيث التقى بأصدقائه الجامعيّين ، وسُمح له بمتابعة دراسته في الفيزياء الرياضيّة في جامعة بريستول مجّاناً . وكان تلميذاً متفوّقاً ، لماح ومُدقق ، وبعد حصوله على درجة الدكتوراه في أدينبره ، وحصل على بعثة دراسيّة لمتابعة أبحاثه .

ومع اندلاع الحرب مع ألمانيا ، تعرّض فوخس للمراقبةاللصيقةمثله مثل جميع الأجانب . لكن بعد ظهوره أمام المحكمة في أدينبره في تشرين الثاني ١٩٣٩ ، سُمِح له بمتابعة عمله . وقبل خمس سنوات ، كان القنصل الألماني في بريستول قد أخبر مدير الأمن المحلّي أن فوخس شخص شيوعي . وحيث أنّه لم ينضم للحزب الشيوعي البريطاني ، ولم يشارك في الفعاليات الشيوعية ، فقد أُهمل التقرير ، واعُتبر محاولة نازيّة لتشويه سمعته .

غزا النازيون هولندا وبلجيكا خلال شهر أيار ١٩٤٠ . واعتُقِلَ فوخس ثم رُحّل إلى كندا مع أجانب موثوق بهم . وكان محظوظاً إذ نجا ـ لأن قارباً آخر كان يحمل أسرى حرب على متنه قد أغرقته غواصة ألمانية في أثناء مرور السفينة التي

(١) ذوي القمصان السمراء هم : ١ ـ أعضاء في قوات الصاعقة الهتلريّة .
٢ ـ النازيون .

Dr Klaus Fuchs

ـ الدكتور كلاوس فوخس : الجاسوس الذري .

تقله . وأثناء ما كان في معسكر أسرى الحرب ، استلم جرائد ومجلات البرفسور عزرا هلبورن ـ أحد أصدقاء شقيقة فوخس . وعاد فوخس إلى بريطانيا في عام ١٩٤١ ، بعد أن مارس أصدقاؤه ضغوطاً لإطلاق سراحه ؛ ولعلّ أبرزهم أستاذه في جامعة أدينبره ـ ماكس بورن .

في أيار من ذلك العام ، وقّع فوخس تعهّداً بالعمل في مجال الأسرار الرسميّة . فعَرَض عليه الدكتور رودولف بييرلز ـ البروفسور في الفيزياء الرياضيّة في جامعة بيرمنغهام ـ عملاً سرّياً أجره قليل له علاقة بالحرب . واستطاع فوخس ثانية اجتياز التدقيق الأمني لأنّ التحذير الألماني عن ماضيه الشيوعي قد تم تجاهُله . آوى بييرلز وزوجته القادم الجديد في منزلهما لمدة ١٨ شهراً ، إلى أن انتقل إلى مسكن بالأجرة . وكانا من ضمن الأشخاص ذوي النفوذ الذين دعموا طلبه ، التي كانت أساسية للأعمال الوطنيّة الهامّة والغاية في السريّة . أصبح كلاوس فوخس مواطناً بريطانيّاً بشكل رسمي في ٧ آب ١٩٤٢ . وأدى قسم الإستخبارات للملك جورج السادس .

لكنّ فوخس عَرَف أن قسمه ذاك كان بلا فائدة ، وكذلك عرف رجال الاستخبارات الروس ، لأنّ النازح الألماني هرباً من النازيّة كان قد تطوّع بتقديم خدماته لموسكو بعد وصوله إلى بيرمنغهام بوقت قصير . واتصل بمساعدة من صديق له في الحزب الشيوعي البريطاني بالكسندر ـ سيمون دافيدوفيتش كرمن ، سكرتير الملحق العسكري في السفارة الروسية بلندن ـ وسلّمه نسخاً من تقاريره [illegible] ، في مواعيد مختلفة في منطقة كينسينغتون أثناء عطل نهاية الأسبوع ، وملاحظات خطيّة حول المواضيع التي أراد الروس معلومات عنها . كان فوخس يعلم ما كان يفعله بالضبط : حتى أنه اتصل بالسفارة الروسية وطلب منهم أن يتحرّوا أمر «الكسندر» خشية أن يكون عميلاً لمكتب مكافحة الجاسوسية البريطاني .

استلمت نازحة ألمانية يهودية فيما بعد ـ وتدعى سونيا ـ آخر المعلومات عن التقدم الإنكليزي الأمريكي في مجال القنبلة الذريّة . كان اسمها الحقيقي روث كوكزينسكي ـ جاسوسة روسيّة تعمل من أوكسفورد . والتقت مع فوخس في أطراف الريف خارج بانبوري . ثم أُرسل الى أمريكا ليتابع العمل في مجال التعاون الذرّي . كما أعطته سونيا تعليمات محددة للقائه مع العميل السوفييتي في نيويورك .

استبعد الأمريكيون فوخس لأسباب الأمن الذري ـ وكما قال ناطق رسمي فإن عدم فعل هذا : «قد يُهين حليفنا الرئيسي في الحرب» ـ وبدأ يعمل في معمل تركيب غازات . لكن في شهر شباط ١٩٤٤ ، شق طريقه ، كما كان مرتباً له ، إلى شارع في أقصى شرق المدينة ، وهو يحمل كرة تنس . كان رجل يدعى ريموند بانتظاره ، وهو يحمل كتاباً غلافه أخضر وزوجين من القفازات . وكانت تلك بداية العلاقة التي مكّنت موسكو من البقاء على اطلاع بآخر أخبار السباق الذري .

وكان «ريموند» هو السويسري اليهودي هنريك غولودينتسكي ، الذي عُرِف باسم هنري غولد عندما وصل أبواه إلى أمريكا في عام ١٩١٤ . لم يعرف فوخس عن حقيقة شخصيته مطلقاً ، ولا أنه عَمِل كعالِم كيمياء حيويّة لدى شركة السكر بفيلادلفيا ، أو عن كونه صلة وصل أساسية في سلسلة التجسس التي يُشرف عليها نائب القنصل الروسي أناتولي ياكوفليف في ذاك الوقت ـ وهو الجاسوس الذي كشف عنه غوزنكو . لكنه عرف ما قيل عن أن «ريموند» كان على صلة بالروس فأخبره بكل ما يعرفه ، بما في ذلك تفاصيل مصنع إنتاج القنابل قرب كنوكسفيل بولاية تنيسي ، وخطط البناء الفعلي لقنبلة اليورانيوم . وقد سلّم هذه الأسرار في لقاءات مختلسة في جميع أنحاء المدينة .

فشل فوخس من المحافظة على موعدين في أواخر عام ١٩٤٤ ، إذ كان عليه أن ينضم للدكتور روبرت أوبنهيمر ورئيسه القديم في جامعة بيرمينغهام الدكتور بيرلز في قاعدة لوس ألاموس الجويّة قرب سانتا في بينو مكسيكو ، لإجراء التركيب النهائي لأجزاء القنبلة وفحصها .

وحيث أنه لم يتمكن من إخبار غولد ، فقد قلق هذا الأخير من أن يكون قد حصل شيء خطأ . وبعد تفقد شقة فوخس ، اتّصل بشقيقة فوخس التي كانت تعيش في كامبريدج بولاية ماساشوسيتس ، وترك عندها رقم هاتفه . وفي شهر كانون الثاني ١٩٥٤ سافر فوخس إلى الشمال واتصل برقم غولد ، وكانت الأخبار التي أعطاه إياها تستحقّ الإنتظار . فكتب العَالِم كل ما عرفه في لوس ألاموس ، وأفشى سر النوع الثاني من القنبلة الذريّة التي يستخدم فيها البلاتونيوم . وقد ضَمَّن جميع التفصيلات والتصميم والمركبات والتصنيع في إضبارة مع معلومات عن عدسة إنفجار ضمني جديد تُفجر القنبلة لدى قدح الزناد للأمام .

رتّب غولد موعد الإتصال التالي في شهر تموز في سانتافي . وأثناء جلوسه في سيارة هناك على جسر كاستيللو ، كشف فوخس أن أول اختبار كان خلال الشهر التالي ، وسوف يشهده بنفسه . ورفض عرض غولد بمبلغ ١٥٠٠ دولار قائلاً بأنّه لا يحتاج للمال .

عندما التقى الرجلان مرة أخرى ، في شهر أيلول ، كانت أمريكا قد فجّرت بنجاح القنبلة في ألاموغوردو ، وأسقطت غيرها فوق مدينتي هيروشيما وناغازاكي . وقدم فوخس معلومات شاهد عيان لاختبار الإنفجار ، واعترف بأنّه لم يُقَدّر إمكانيات الحلفاء لإنشاء سلاح العصر ، حق قدره ، لاستخدامه ضد اليابانيين . كما أخبر عن كل ما يعرفه عن القنبلتين التي أُسقطت على المدينتين ـ من ناحية الحجم ، والمواد وكيفيّة انفجارها .

وخرج هاري غولد مِن حياة فوخس . وعمل العالِم بعدها في منصب رئيس الفيزياء النظريّة في مؤسسة الأبحاث الذريّة النووية في مدينة هارويل . وتصارعت في أعماق فوخس مشاعر الحنين للعودة «للوطن» . كان قد سمع عن اعتقال ألان نان ماي ، ورغم أنه لم تكن هناك رابطة مباشرة بين الرجلين ، فقد كان من المؤكد أن رجال مكافحة الجاسوسيّة سيتابعون بحثهم عن جواسيس آخرين . وفوق ذلك كلّه ، كان البريطانيون ـ وليس الجيش الأحمر ـ قد احتلوا كيل ، البلدة التي درس فيها فوخس بالجامعة . فهل كان باستطاعتهم أن يجدوا سجلات الألمان التي تَذكر اتصالاته الشيوعية السابقة ؟

قطع عمل ماكماهو ، الذي اطّلع أعضاء الكونغرس الأمريكي ، الطريق على البريطانيين من مشاركة الأمريكيين معلومات التطوّر الذري . واختيرت هارول كمنطقة للعمل على تطوير سلاح ذرّي مستقل . انكبّ فوخس على عمله الجديد ، فعيّن مجموعة مساعَدة ، وحضّر برامج ، وشارك في كل اللجان تقريباً ـ حتى أنه مثّل بريطانيا في عام ١٩٤٧ في مؤتمر بواشنطن لتقرير حجم المعلومات التي يجب أن يَطلّع عليها الرأي العام عن السلاح الذري وما هي المعلومات التي لا يجب إطلاعهم عليها . وتشاء سخرية الأقدار أن يجادل فوخس ، الرجل الذي أعطى كل المعلومات للروس ، ضد إطلاع الرأي العام الغربي على الكثير من المعلومات .

لم يتّصل فوخس لأكثر من عام كامل ، ولم يزعجوه بدورهم وإذ أصبح الآن

ذوفائدة أقل بالنسبةلهم؛ وكما تبين لاحقاً ، كان لهم مصادر أخرى تمدّهم بالمعلومات . كان دونالد ماكلين وكيم فيلبي ما يزالان في واشنطن ، وحضر ماكلين مؤتمر عام ١٩٤٧ كمستشار سياسي للسفارة البريطانية حول الطاقة الذريّة .

أعاد فوخس في أوائل عام ١٩٤٧ اتصالاته مع الروس . وقبل ١٠٠ جنيه في قاعة بشمال لندن ، وكانت تلك المرة الأولى التي يأخذ فيها نقوداً غير نفقاته الشخصيّة . وكما قال لاحقاً ، كان ذلك العمل لإخضاعه للعمل في القضيّة ، فسرَّب أسراراً خلال الأشهر القليلة التالية عن مصنع المفاعل الذري الجديد في ويندسكايل بشمال غرب انكلترا ؛ ومعلومات عن تطوير البريطانيين للقنبلة .

بدأ فوخس يُخفي بعض الحقائق لأوّل مرة . كما فشل في المحافظة على بعض مواعيد اللقاءات . كان يعاني من حالة وصفها بأنها «شيزوفرانيا يمكن التحكّم بها» ، كانت فيها فلسفته الماركسيّة والعزلة الناجمة عن المجتمع ـ الضرورية لجاسوس ناجح ـ تتضارب مع الصداقات التي كان ينشئها مع «أناس شرفاء» في هارويل» .

ذهب فوخس في شهر تشرين الأول ١٩٤٩ ، بعد شهر من اكتشاف الطائرات الأمريكية لأول انفجار قنبلة ذرية من صنع السوفييت ، إلى ضابط الأمن في هارويل ـ قائد الجناح هنري آرنولد ـ «بمشكلة شخصية» . كان والده قد أصبح أستاذاً في جامعة لايبزغ ، أي في مدى روسيا ، وبإمكانهم استخدامه للضغط عليه لتسريب معلومات عن هارويل . فهل عليه ـ أي فوخس ـ أن يستقيل ؟ .

أخذ آرنولد الموضوع بجديّة ، وقال بأنه لا يستطيع أن يقدم النصح من نفسه . ثم اتصل بقادة الخدمات في لندن ، وأخبرهم بأن فوخس كان يعاني من تأنيب ضميره ، وقد يكون جاهزاً للتحقيق معه . من غير المعلوم لفوخس أنَّ وكالة الإستخبارات الأمريكية ومكتب الإستخبارات العسكرية وجهاز مكافحة الجاسوسية العسكريّة البريطانية كانوا قد اكتشفوا خيانة قبل عامين . كانت مفاتيح القضية قد توضحت في عام ١٩٤٧ أثناء مناقشات الأمم المتحدة حول التحكّم بالطاقة الذريّة ، عندما عرف المندوبين السوفييت بوضوح الأساليب والرموز الأمريكية ، ومن رسائل تنصتوا عليها لدى بثّها من السفارة السوفييتية بواشنطن إلى مقر الإستخبارات العسكرية في موسكو . كلُّ ذلك ضيق الخناق حول العلماء

البريطانيين في لوس ألاموس . ولدى التحقق من تحركات كل البريطانيين كان من الممكن تحديد هوية الجاسوس ـ فوخس لكن لم يكن لديهم دليل قوي يقدمونه للمحكمة .

أثار تقرير آرنولد محاولة جديّة للحصول على الإعتراف المطلوب . تم إرسال ويليام جيمس سكاردون ـ محقق صبور امتحن كيم فيلبي لاحقاً ـ إلى هارويل لاستجواب فوخس . في أول لقائين لهما ، أنكر فوخس أنه كان على اتصال مع الضباط السوفييت في أمريكا . وفي ثالث لقاء في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٠ . غيَّر العالِمُ روايته بشكل مفاجىء ، وقرر أن يعترف «لأحاول أن أُصلح الأضرار التي تسببت بها . . لأتأكد من أن هارويل ستعاني أقل ما يمكن ولأنقذ أصدقائي بقدر استطاعتي وذاك الجزء الجيد من علاقاتي معهم» .

دُهش سكاردون عندما أقر فوخس بأنّه تجسس لمدة سبعة أعوام . لم يُدرك أحد مدى خيانته . وصُدِم المحقق عندما أخبره فوخس بأنه يعتبر أن أسوأ ما فعله هو إخبار الروس عن كيفية صنع القنبلة الذرية .

بعد جهد جهيد ، استطاع المحقق استخلاص اعتراف مفصَّل منه ، وعلى أساس ما قاله ، تمكّن رجال الإستخبارات الأمريكية من اعتقال هاري غولد .

وقّع فوخس على اعترافه في ٢٧ كانون الثاني ، وبدا أنّه يعتقد بأنه يستطيع أن يعود إلى عمله في هارويل بعدما أراح ضميره . أُعيد في ٢ شباط إلى لندن حيث اعتقله الضابط في الاسكوتلانديارد ليونارد بير ت . وكما حصل لألان نان ماي ، فقد وجهت إليه تهمة تسريب معلومات سرية قد تكون ذات فائدة للعدو ، وأُعيد تجديد سجنه احتياطيّاً .

أثار الإعتقال ضجّة على كلا جانبي المحيط الأطلسي . وفي جلسة لسماع الأقوال ، وصف السيد كريستماس هامفري ـ المدعي العام ـ فوخس كشخصية جيكل وهايد الفريدة ، وقال :

«إنَّ نصف عقله كان غير منطقي التفكير ولا يعزّز الحقائق ، بينما كان النصف الثاني يحيا في عالم العلاقات الطبيعية والصداقات مع زملاء الجامعة ويتسم بالولاء البشري . لقد نشأت الشخصية المزدوجة بوعي و تصميم . ولقد جزّء عقله إلى نصفين» .

لكن إذا كان الحشد الغفير في قاعة المحكمة رقم ١ في أولد بايلي قد توقعوا أن يُشاهدوا وحشاً في قفص الإتهام ، فإنهم خاب أملهم . لأن المتهم الغريب المدان بخرق القانون الخاص بعمل الإستخبارات ، كان قد تقدم بشكره لهيئة سجن بريكستون على عنايتهم به ، وقال بأنه جاهز لتنفيذ الحكم الذي يصدر بحقّه ليُكفر عن جرائمه .

حملق القاضي غودارد فيه بلا رأفة . وأشار إلى أنّ الاعدام شنقاً سيناسب التهم التي أُدين بها المتهم ـ «إن جريمتك بالنسبة لي لا تختلف كثيراً عن جريمة الخيانة العظمى . . . لكنّك لا تُحاكم بتلك التهمة» .

ـ وقال مضيفاً :

«لقد استفدّت من حقّ اللجوء السياسي ، الذي كان دائماً امتيازاً يمنحه هذا البلد للأناس الملاحقين في بلدهم بسبب آرائهم السياسيّة . لقد خنت الضيافة والحماية المعطاة لك بخيانة عظمى» .

بعد ساعة وعشرين دقيقة من بدء المحاكمة ، غادر فوخس قاعة المحكمة ، ليبدأ بتنفيذ الحكم الذي أصدر بحقّه بالسجن لمدة ١٤ عاماً ـ وهي العقوبة القصوى في القانون الذي أدانه ـ في معتقل وور موود . وفي ١٢ شباط عام ١٩٥١ ، جرّدته وزارة الداخلية رسمياً من جنسيته البريطانية بسبب عدم ولائه ، لم يكن بالإمكان ترحيله عندما أطلق سراحه من سجن ويكفيلد في ٢٢ تموز ١٩٥٩ ، بعدما قضى تسع سنوات فيه ، وتعلم السلوك الحسن ،لكنه اختار مغادرة البلاد ، فاقتيد إلى لندن ، وَوضع في طائرة متجهة إلى برلين الشرقية .

كان الروس قد صرحوا للرأي العام بعدم علاقتهم بفوخس عندما تم اعتقاله ، بعدما لم يعد ذا فائدة بالنسبة لهم ، ويمكن لمحاكمة جاسوس ضخمة كهذه أن تُحرج بريطانيا وأمريكا معاً ، وتُعرّض للخطر التعاون المستقبلي في المجال الأمني . لكنهم رحبوا بعودته ، ومُنِح الجنسية الألمانية الشرقيّة وعينوه بمنصب نائب مدير المعهد المركزي الألماني الشرقي للفيزياء الذرية في روسندورف قرب دريسدن ، براتب سنوي قدره ١٢,٠٠٠ جنيه .

وفي عام ١٩٦٤ ، استلم منصب المدير . . بعدما هاجر رئيسه الأستاذ هاينز هارويتش إلى أمريكا .

أخبرت إيما فويكين ، التي سُجنت في كندا لمدة ٢,٥ (سنتين ونصف) بعد أن أخبر المنشق الروسي إيغور غوزنكو عن كونها جاسوسة سوفييتية في قسم الشؤون الخارجية الكندية ، اللجنة الملكية التي كانت تُحقّق في اعترافات غوزنكو بأنها كانت تُسرّب الأسرار عن طريق المرحاض في عيادة طبيب الأسنان الذي كانت تذهب لعنده . إذ تركت وثائق أخفتها هناك أثناء مواعيد معالجة أسنانها . كانت الأسرار تُجمع من قبل سائق الجاسوس نيكولاي زابوتين .

فقد رجال أبرياء أعمالهم بعد الكشف عن خيانة كلاوس فوخس . ولإحكام الأمن ، فقد أُصدرت توجيهات بأن يكون العاملين في المواضيع السرية في المستقبل من أصل بريطاني ؛ ويفضّل أن يكون أبواه بريطانيين . وكان على الدكتور بوريس دايفيدسون ، الذي عـمـل أيضاً في هارويل ، أن يستقيل من عمله مرغماً ، لأنّ والديه كانا ما يزالان خلف الستار الحديدي ، ويمكن استخدامهما في محاولةٍ لإبتزازه .

تختلف تقديرات كمية الوقت الذي وفّره الجواسيس الروس لتطوير القنبلة بين ١٨ شهراً و٥ سنوات . ويمكن أن يخمن الغرب كم من الأموال قد تم توفيره بسبب ألان نان ماي وكلاوس فوخس ودايفيد غرينغلاس وخونة آخرون تفادوا الحاجة لاكتشاف السُبل البديلة في الأبحاث الذريّة . وقد فجرّت روسيا قنبلتها الذرية الأولى في شهر أيلول ١٩٤٩ . بعد أربع سنوات من الإنفجارات الأمريكية العنيفة . وكان على بريطانيا ، التي تعاونت مع أمريكا على إنشاء القنبلة ومنع عنها امتيازها بسبب عمل ماكماهون ، أن تنتظر حتى عام ١٩٥٢ لتقوم بتفجيرها الأولي - حتى رغم كونها دفعت أجور اثنين من العلماء الذين وفّروا بمعرفتهم الكثير على الروس .

جوليوس وإيثل روسنبرغ: جواسيس أم ضحايا ؟

ترى هل كان جوليوس وإيثل روسنبرغ كما ادعيا :«أوّل ضحايا الفاشيّة الأمريكية» بعد أن حُكِمَ عليهما بالموت «بتهمة ملفّقةٍ ، هي الأكثر وحشيةً في تاريخ البلاد» ؟ أمْ هل كانا ، كما صرّح الرئيس دوايت أيزنهاور الجاسوسان اللذان «بتغييرهما مسار الحرب الذريّة بشكل متصاعد الخطورة قد حكما بالموت على عشرات الملايين من الناس الأبرياء في جميع أنحاء العالم» ؟ إن ذلك كله يبقى جدال فشلت الحريّة الأمريكية الجديدة في جمع المعلومات من حله بشكل قاطع .

اقتيد الثنائي روسنبرغ إلى الكرسي الكهربائي في سجن سينغ سينغ بولاية نيويورك بتاريخ ١٩ تموز ١٩٥٣ بعد الساعة ٢٠,٠٠ بقليل . كان أوّل تنفيذ لحكم الإعدام يجري في النهار ليتذكره الجميع ، وليتجنبوا عطلة يوم السبت اليهودي التي بدأت مع مغيب الشمس . وكان أول تنفيذ لحكم الإعدام بحق امرأة بسبب خرق للقوانين السياسيّة منذ موت ماري سورات بسبب تورطها في اغتيال الرئيس الأمريكي ابراهام لينكولن في عام ١٨٦٥ كما كان أول تنفيذ حكم إعدام ينفذ بحق المدنيين في زمن السلم في أمريكا بسبب الجاسوسيّة والوحيد من نوعه . فما الذي فعلاه ليحتلاّ مكاناً بارزاً كهذا في التاريخ ؟

كان وقتها زمن البارانويا الوطنيّة من الشيوعية والشيوعيين . واجتاحت موجة من الهيستريا، التي أثارتها تصريحات إيغورغو زنكو ومحاكمات الجواسيس ، البلاد بقيادة لجنة من أعضاء مجلس الشيوخ ، وقادها فيما بعد جوزيف ماكارثي . فانزرع الشك بوجود الروس تحت كل سرير وفي كل مهنة ؛ وخصوصاً في هوليوود حيث ظهرت أدلة على ضلوع بعض العاملين في السينما بالعمل مع اليساريين . «من الأفضل أن نواجه الموت من أن نواجه الروس ، كانت كلمة الساعة للقادة الملاحقين . وكان أي شخص سيقع في المشاكل إذا رفض الإجابة مباشرة عن السؤال العالمي :«هل أنت الآن ، أوكنت فيما سبق ، شيوعيّاً ؟» .

كان ج . إدغار هوفر ـ الأقل شعبية من ماكارثي ، والقائد القوي لوكالة الإستخبارات الأمريكيّة ـ يشن حرباً على المتعاطفين مع الشيوعيين . وإذا وقع أحد العملاء في يده ، لا يبقى أمامه وسيلة لتسهيل الأمور على نفسه إلا بالكشف عن «شيوعيين» آخرين . وحيث أن غوزنكو كشف عن كون نائب المستشار الروسي

Julius Rosenberg

- جوليوس روزنبرغ .

أناتولي ياكوفليف من رجال الجاسوسية في نيويورك ، فقد تمكن رجال الإستخبارات الأمريكية من جعل مراسلته إليزابيث بنتلي مخبرة لهم ، وأثناء التحقيق مع أحد الذين كانت تتصل بهم ، قاموا باستجواب هاري غولد . وبعد ثلاث سنوات ـ أي في ٢٣ أيار ١٩٥٠ تحديداً ـ تم إلقاء القبض عليه بسبب علاقته واتصالاته مع كلاوس فوخس . لم ينكر غولد حقيقة أنه تجسس لصالح الروس منذ الثلاثينات ، وبدأ يكشف عن أسماء آخرين ، على أمل أن يخفف تعاونه العقوبة التي تنتظره .

كشف عن أنه اتصل بجندي أمريكي يعمل في قاعدة لوس ألاموس ، أثناء ذهابه إلى نيومكسيكو لمقابلة فوخس في تموز عام ١٩٤٥ . كان الجندي يحمل النصف الأعلى من علبة سجائر تكمّل النصف الآخر الذي يحمله غولد .

كان على غولد أن يقول : «لقد أرسلني جوليوس» . وكان على الجندي عندها أن يعطيه تفاصيل عدسة التفجير الداخلي للقنبلة الذريّة التي أخبر فوخس الروس عنها ، واستلم غولد مقابلها ٥٠٠ دولار .

كان غولد قادراً على تحديد هوية الجندي من الصور التي أراه إياها رجال الإستخبارات الأمريكية ، فكان اسمه دايفيد غرينغلاس . كان هو وزوجته من المشتبه بكونهم من المتعاطفين مع الشيوعيّة في السابق . كان غرينغلاس وقتها يعمل في شركة هندسيّة في بروكلين مع جوليوس روسنبرغ ـ ابن المهاجرين الروسيين ـ والمتزوج من شقيقة غرينغلاس ، إيثل . عرف رجال المخابرات الأمريكية بأنّ روسنبرغ كان قد سُرّح من الخدمة في فرقة الإشارة الأمريكية بعد خمس سنوات بسبب انضمامه الى منظمّة غير شرعيّة ؛ الحزب الشيوعي .

اعْتُقل غرينغلاس في ١٦ حزيران ١٩٥٠ ، واعترف تحت الإستجواب الدقيق من مساعد النائب العام بأنّه سلّم أسراراً فقط إلى غولد ، لكنه أعطى معلومات وتصاميم عن القنبلة الذرية لصِهره في نيويورك مرتين في عام ١٩٤٥ . وقال بأن روسنبرغ أخبره بأنه سيبعث بهم إلى «أصدقائه» الروس وكشف أيضاً على أن روسنبرغ كان قد نصحه ، بعد اعتقال غولد ، بالهروب مع زوجته إلى مكسيكو ، وعرض عليه مساعدة مادية للذهاب . وقال غرينغلاس بأن مساعدين آخرين لروسنبرغ قد هربوا إلى هناك ـ بما فيهم صديقه في الجامعة مورتون سوبل .

ألقي القبض على جوليوس روسنبرغ في اليوم التالي ، رغم أنه قال لرجال الإستخبارات الأمريكيّة : «إنني لم أعرف أي شيء عن القنبلة الذرية حتى سمعت بإسقاطها على اليابان» . واعتقلت زوجته إيثل بعد ستة أيام ، وفي ١٨ آب أمسكوا بمورتون سوبل في لاريدو بولاية تكساس . كان المكسيكيون قد أخرجوه من بلادهم كما زعموا ، رغم أن الشكوك حامت حول اختطاف رجال الإستخبارات له ، وإحضاره للشمال لتسليمه للسلطات الأمريكية .

وجّهت التهم المباشرة لكل من غرينغلاس وغولدو سوبل وروسنبرغ وزوجته إيثل وياكوفليف ـ الذي كان وقتها قد عاد الى موسكو ـ لتآمرهم التجسسي على الدولة . صدر حكم المحكمة في حق غولد وغرينغلاس فقط بكونهم مذنبين . ولم توجه التهمة إلى روث غرينغلاس ؛ رغم أن زوجها ادعى بأن روسنبرغ أرسلها إلى لوس ألاموس لتؤثر عليه فيعمل بالتجسس . لم يتوضح سبب عدم اعتقالها إلى بعد عدة سنوات ؛ عندما اطلع الرأي العام على أوراق مكتب الإستخبارات الأمريكية المتعلقة بهذه القضيّة . قام النائب العام المكلف بالتحقيق مع غرينغلاس بالكثير . فوافق غرينغلاس على أن يشهد ضد صهره طالما أن زوجته ستحصل على الحصانة من الملاحقة القضائيّة ، وطالما أن الإدعاء سيطالب بالحكم عليه بعقوبة أقل من خمس سنوات . وحيث أن السلطات كانت بحاجة لدليل إيجابي ضد روسنبرغ فقد وافقت على شروطه .

حتى تلك المرحلة ، لم تَطَلْ تصريحات غرينغلاس زوجة روسنبرغ ، إيثل . لكنّ روث ودايفيد اعترفا بأنهما عندما أعطيا المعلومات لروسنبرغ ، فإنه قام بتسليمها لإيثل لتقوم بطباعتها قبل إرسالها للروس . وتبينت أهمية هذه النقطة عندما ظهرت ورقة خطية أرسلها رئيس الإستخبارات الأمريكية هوفر إلى النائب العام هوارد ماكغارث . إذ كتب فيها : «ما من شكٍ بأن جوليوس روسنبرغ لو قدّم تفاصيل عن نشاطاته التجسسية ، فمن المحتمل عندها أن نتمكن من توجيه اتهاماتنا ضد أفراد آخرين . واعتقد بأن توجيهنا الإتهام لزوجته قد يصعّد المسألة» .

عرف مكتب الإستخبارات الأمريكية ، من خلال التنصت على الرسائل اللاسلكية السوفييتية ، بأن رجلاً وزوجته ، يشكلان فريقاً في نيويورك ، كانا متورطين في التجسس . واقتنعوا بعد اكتشاف روسنبرغ بأنه جزء رئيسي في حلقة

التجسس الروسيّة . ورغم أنهم عرفوا بأن عائلة غرينغلاس كانوا متورطين بالعمل الشيوعي منذ أوائل العشرينات ، إلا أنهم كانوا مستعدين للسماح لهم بالذهاب إلى المحكمة برواية تؤكد كونهم قد غُرّر بهم للعمل في الجاسوسية من قبل صهر دايفيد .

وبعيداً عن غرينغلاس وهاري غولد وإليزابيث بنتلي ، كان لدى الإدعاء شاهد آخر هو جيروم إيوجين تارتاكوف ، الذي كان زميل روسنبرغ في لعب الشطرنج في نيويورك ، حيث اعتُقل روسنبرغ قُبيل محاكمته . ادعى تارتاكوف ـ المعروف عنه بأنه شيوعي ـ بأن روسنبرغ كشف تفاصيل تجسسه ، وكيف اعتنى ببعض الأصدقاء عندما لاحظ بأنّه «لعب اللعبة وخسر» ، أحب روسنبرغ صديقه الجديد ، الذي خدم سنتين في مكتب تأجير سيارات ، وبعد تسريحه ، حصل له على وظيفة سائق مع مسؤول الدفاع . واكتشف روسنبرغ متأخراً بأن تارتاكوف كان مخبراً لمكتب الإستخبارات الأمريكية .

عندما بدأت جلسة سماع أقوال شهود الإدعاء ضد غولدو غرينغلاس وسوبل والثنائي روسنبرغ في ٦ آذار ١٩٥١ ، أوضح القاضي إرفينغ كوفمان بسرعة أنه يرحب بأي دليل عن اتصالات شيوعية يقدم إليه ، رغم احتجاجات الدفاع بأن الشهادة ليست دليلاً على القيام بالتجسس فعلاً . كرّر غرينغلاس وغولد أقوالهما عن تسليم أسرار القنبلة الذريّة ، وأخبرت إليزابيث بنتلي عن المخابرات الهاتفية التي كانت تصلها من رجل يدعو نفسه جوليوس ، كما اعترف المهندس الكهربائي ماكس إليتشر بالعمل كمراسل بين سوبل وروسنبرغ .

أخذ روسنبرغ عندئذ موقفاً معانداً . فأنكر أي معرفة بالجاسوسية ، وعندما سُئِل فيما إذا كان شيوعياً ، طالب بتنفيذ التعديل الخامس من الدستور ، رافضاً الإجابة «من منطلق أن الإجابة قد تُؤخذ عليه» . لكنّه اعترف بإعجابه بالمنجزات الروسيّة ، وأضاف : «لقد شعرت وما زلت أشعر بأنهم شاركوا بحصة كبيرة في تدمير وحش هتلر الذي قتل ستة ملايين من الناس ، الذين أشعر بالتعاطف معهم» .

وشاركته إيثل روسنبرغ عناده ، بإنكارها أي علاقة بالجاسوسيّة أو الهيئات الشيوعيّة . وألحّ وكيل الإثنين ، إيمانويل بلوتش ، بأن تصدّق هيئة المحلفين

موكليه أكثر من تصديقهم لأقوال غرينغلاس وزوجته الذين «اتفقا مع الحكومة» . وأضاف قائلاً :

«كان دايفيد غرينغلاس مستعداً لأن يدفن شقيقته وزوجها لينقذ نفسه . إن الثنائي غرينغلاس ليسا فقط جاسوسين باعترافهما الشخصي ، لكنهما أيضاً جاسوسين مرتزقة . إنهما يفعلان أي شيء مقابل المال . إن أي انسان سيشهد ضدّ لحمه ودمه ، ضد أخته ، هو شخص قاسٍ وقذر ، وينهك بفعله هذا مبادىء التحضّر منذ وُجدت . إنه أحطُّ من أحطِّ حيوانٍ وقعت عيني عليه» .

لكن كل هذا الكلام لم يكن منه فائدة . إذ وجد القاضي بأن الزوجين روسنبرغ ومورتون سوبل مُذْنبيْنْ . فَحُكم على سوبل بالسجن لمدّة ٣٠ سنة كحد أقصى ، مع قرار بعدم إطلاق سراحه قبل ذلك لحسن سيره وسلوكه . وحكم على الزوجين روسنبرغ بالإعدام . وقال لهما القاضي :

«إنني أعتبر جريمتكُما أسوأ من القتل ، ففي تلك الجريمة يكتفي المجرم بقتل شخص واحد . إن عملكم بوضع القنبلة الذرية في أيدي الروس قبل سنوات توصل أفضل علمائنا لقناعة أن الروس سيحتاجون كل تلك الفترة أيضاً ليكملوا القنبلة قد سببت ، برأيي الشخصي ، العدوان الشيوعي في كوريا ، الذي نجم عنه ضحايا فاقت الـ ٥٠٠٠٠ شخص ، ومن يدري كم من الملايين من الناس الأبرياء سيدفعون ثمن خيانتكما . لقد غيرتما في الواقع مسار التاريخ لغير صالح بلدنا» .

واقتيد الزوجان إلى زنزانتين أسفل قاعة المحكمة . وتبع ذلك فاصلٍ لا يُصدّق ، أذهل السجانين والمساجين على حد سواء . إذ غنّت إيثل مقطعاً لبانشيني من أوبرا «السيدة الفراشة» ، مطلعة «سيعود في أحد الأيام» . ولما تناهى الغناء لِسَمع زوجها ، طلب منها أغنية ثانية من نفس الأوبرا . ثم استجابت بعدها الصيحات المساجين الآخرين التي طالبوا فيها بأغانٍ أخرى ، حتى انتهت بأغنية «رثاء معركة الجمهوريّة» .

تقدّم إمانويل بلوتش بطلبات للمحكمة يطلب فيها تخفيف الحكم ، وقال لروسنبرغ : «إنكما كقشتين في مهب الرياح السياسيّة» . رفضت كل مساعيه لدى المحاكم . وأرسل الحائزان على جائزة نوبل هارول أوري وألبرت أينشتاين

Dwight and Mamie Eisenhower

ـ الرئيس الامريكي ايزنهاور وزوجته .

بشكوكهم إلى الصحافة ، وقالا بأنه كان هنالك دليل على عائلة تزرع بذور الكراهية بين عائلتي غرينغلاس وروسنبرغ ، وأشار إلى أنّ غرينغلاس وغولد ، الذين اعترفا بالتجسس ، قد حكم عليها بالسجن لمدة ١٥ و٣٠ سنة ، بينما حكم على من شهدا ضدهما بعقوبة الموت لضمان براءتهما ـ وكل ذلك على أساس شهادة أناس وقفوا أمام المحكمة وشهدوا لينجوا من قرار حُكمٍ كهذا .

تم التوسط لدى الرئيس أيزنهاور ثلاث مرات لتخفيف الحكم . وفي ١١ شباط عام ١٩٥٣ ، قال رافضاً طلباً لمحاكمة جديدة : «إن هذين الشخصين قد خانا بعملهما قضية الحريّة التي يحارب من أجلها الرجال الأحرار ويموتون دفاعاً عنها في هذه الساعة» .

وفي ١٦ حزيران قابل وفداً من رجال الدين يمثلون ٢٣٠٠ رجل كنيسة ، ورفض طلباً بتخفيف الحكم قدموه ، معترفاً لابنه جون الذي كان يخدم في كوريا برسالة أرسلها له أنه رغم أنها «مسألة غير منطقية عدم التدخّل» عندما تكون حياة امرأة في خطر ، فهو يعتبر إيثل أقوى شريك بين شركاء التجسس ، وأضاف بأنّه

لو خفض الحكم عليها وحدها ، «لجنّد السوفييت ببساطة جواسيسهم من النساء من الآن فصاعداً» .

وفي النهاية ، عندما وصلت الإحتجاجات ضد الإعدام حدها الأقصى في يوم تنفيذ حُكم الإعدام ، أصدر الرئيس بياناً قبل خمس ساعات من ذهاب الزوجين إلى الكرسي الكهربائي قال فيه :

«لا يغيب عني حقيقة أن هذه القضية قد أثارت المشاعر بشكل كبير على الصعيدين الداخلي والخارجي وفي أذهان الشخصيات العالمية الكبيرة . لكنني أستطيع القول فقط بأن الزوجين روسنبرغ قد يكونا قد حكما على عشرات الملايين من الناس الأبرياء بالموت في جميع أنحاء العالم بعدما زادا فرصة قيام حرب نووية بشكل كبير . لكن الشعور بما قد يجره فعل هذين الجاسوسين من موت للملايين هو بالتأكيد الحكم عليهما بالموت» .

خلال عامين من تقديم طلبات الرأفة ، ومع ازدياد الأمل وانطفاء جذوته في كل مرّة ، بقي الزوجان روسنبرغ يرفعان من معنويات بعضهما البعض برسائل تضمنت مشاعر الحب الرقيق والإنكار الغاضب لأي ذنب . وكان هنالك مشاهد مؤثرة عندما كان يسمح لأولادهما بزيارة والديهما ـ كان مايكل وروبرت في سن الثامنة والرابعة عندما اعتقل أبواهما ثم حكم عليهما . وكتب روسنبرغ بأنّه : «انفجر بالبكاء وانهار بسبب تأثّر أبنائه العميق بعد زيارة واحدة كهذه» . وأخيراً ، وبعد رفض طلب الرأفة الثاني المقدّم للمحكمة العليا بنسبة خمسة أصوات لأربعة ، تقرر أن يكون موعد تنفيذ الحكم في ١٨ حزيران ـ وهو يوافق عيد زواج الزوجين روسنبرغ الرابع عشر . ولما حان الموعد ، تقرر تأخير تنفيذ الحكم ٢٤ ساعة .

وبقي هنالك طريقة واحدة لإيقاف تنفيذ حكم الإعدام . وقد قالها لهما جيمس بينيّت ـ المدير الفدرالي لمكتب السجون ـ نيابة عن المدّعي العام هربرت برونل . إذ قال لهما : «تعاونا كليّة مع الحكومة ، فنستطيع على أساس ذلك تخفيض حكم الإعدام بحقكما» .

سألت إيثل بينيت إذا كان يريدها أن تلفّق أكاذيب . وشبّه جوليوس «التعاون أو الموت» ، المحتّم لأساليب التعذيب في العصور الوسطى . وأخبر العالم عن طريق محاميه ما يلي :

«بطلبها منا أن نرفض حقيقة براءتنا ، فإن الحكومة تؤكد شكوكها المتعلّقة بكوننا مذنبين . ونحن لن نُساعد في تصفية سجل ملفّق واتهام مخادع وحكم بربري . . . سيسجل التاريخ بأننا كنا ضحايا تهمة ملفقة هي الأكثر وحشية في تاريخ بلادنا» .

أُبقي خط هاتفي خاص مفتوحاً مع سجن سينغ سينغ حتى آخر لحظة ، في حال لو غير أحد الزوجين روسنبرغ رأيه ؛ لكنّه لم يُستخدم . بينما كتبت إيثل آخر رسائلها تخبر فيها أولادها : «تذكروا دائماً بأننا كنا بريئين ولم نكن لنفعل شيئاً لا يُرضي ضميرنا . نضمكم إلى صدورنا ونقبلكم بكل قوتنا» . وكتبت إلى إيمانويل بلوتش ، المسؤول عن رعاية أطفالها كوصي عليهم ، تقول : «لقد فعلت كل ما باستطاعتك . إننا أول ضحايا الفاشية الأمريكيّة» .

مات جوليوس روسنبرغ أوّلاً ، وكانت ابتسامة واهية تلوح على شفتيه وهو ينظر للأمام . دون أن ينطق بأي كلمة . وعندما تقدمت إيثل من الكرسي الكهربائي ، قام السجانون المرافقون لها بتوجيه آخر رجاء «لأجل أطفالك الذين ما زالوا بحاجة لكِ ، ألا تقولين شيئاً يمكن أن يُنقذك ؟ هل يجب أن تكتمل هذه المأساة ؟» فأجابت بهدوء : «ليس لدي ما أقوله . أنا جاهزة» . كانت في السابعة والثلاثين ، وكان زوجها يصغرها بسنتين .

لم يُنْهِ موتهما الشك عن حقيقة كونهما مذنبين . واجتمع دايفيد غرينغلاس ، الذي أُطلق سراحه عام ١٩٦٠ ، بعد أن أمضى أقل من ثلثي مدة الحكم ، بروث . فَغيّر اسميهما ليبدأ حياة جديدة في مكان مجهول . وظلّ يؤكد ما قاله له في المحكمة عن الأحداث . وبقي مكتب الإستخبارات الأمريكية مقتنعاً بأنّ الزوجين روسنبرغ كانا شخصين أساسيَّين في حلقة الجاسوسية الرئيسية التي امتدّت نشاطاتها إلى أبعد من التهم التي أُدينا بناءً عليها .

قال إيمانويل بلوتش ، الذي مات بذبحة صدرية بعد ٨ أشهر من تنفيذ حكم الإعدام عن عمر يناهز ٥٢ سنة ، في الجنازة المؤثرة : «يبدو أن الجنون والتمييز العنصري والبربرية والقتل هي جزء من مشاعر أولئك الذين يحكموننا» .

تابع مايكل وروبرت روسنبرغ حملتهما عن براءة والديهما بمشاركة اللجنة الوطنية لإعادة فتح قضية الروسنبرغ ، وكتب روبرت في عام ١٩٧٥ كتاباً رأى فيه

بأن فضيحة ووترغيت ، أثناء حكم الرئيس ريتشارد نيكسون ، كتطور طبيعي من «المحاكمة الفاضحة» ، التي جرت لأبويه ، والتي وضع فيها اللوم على الحكومة لعدم استخدامها السلطة استخداماً صحيحاً .

لكن ربما كان الكابتن سول ستيرن وورونالد رادوش قد اقتربا كثيراً من الحقيقة في موضوع الروسنبرغ عندما كتبا في مجلة «الجمهورية الجديدة» (نيو ريبابليك) في عام ١٩٧٩ عن الوثائق الي لدى مكتب الإستخبارات الأمريكية والتي ، تُظهر أن إيثل قد وضعت في موضع الإتهام كرهينة فقط ضد زوجها ، وأنها اتهمت بالباطل دونما دليل ثابت . وكان الغرض من ذلك الضغط على زوجها ليكشف عن تفاصيل عمله التجسسي قبل الحرب .

هل كانت خدعة قذرة ؟ ربما، لكن وقتها ، كما سنرى فيما بعد ، كانت استخبارات الغرب بعيدة بعداً تاماً عن استخدامها لوحدها .

كان الملازم أول في البحريّة الملكية دايفيد جيمس بينغهام جاسوس ضُغطَ عليه فتورّط بالخيانة . وبسبب معاناته من المشاكل الماديّة وزوجته ذات الطموح الزائد عن الحد المعقول ، فقد وافق في شهر شباط على اقتراحها بأن يبيع أسراراً إلى الروس . وتلقى بيرمنغهام ـ البالغ من العمر ٣١ عاماً وهو الخبير الالكتروني ، الذي يتقاضى ١٨٤٣ جنيهاً سنوياً ، العامل على الطرّاد البحري المضاد للغواصات «روثساي» ـ ٥٠٠٠ جنيهاً مقابل إطلاع موسكو على آخر شحنات الأعماق النووية وستة أجهزة سبر أعماق بالأمواج الصوتية ـ وهي أحدث أجهزة كشف غواصات في العالم ـ وتقنيات البحرية وحلف شمال الأطلسي وقواهما . وقام بتسليم نفسه في ٣١ آب ١٩٧١ ، مدعياً بأن ضميره أنّبه بعد أن تمت ترقيته للإشراف على مشروع الطوربيد الإنكليزي الأمريكي السرّي . في الحقيقة ، كان الجاسوس الروسي أوليغ ليالين قد وقع بيد السلطات قبل يوم واحد ، وعرف بيرمنغهام بأن ذلك انكشاف أمره وافتضاح تجسسه مع رئيسه مساعد الملحق العسكري للقوات البحرية في السفارة الروسية ، لوري تورفيموفيتش كوزمين . وأثناء محاكمة بيرمنغهام في وينشستر خلال شهر آذار ١٩٧٢ . وندّد القاضي السيد بريدج بـ خيانته الوحشية ، وقال النائب العام السير بيتر رولينسون بأن بيرمنغهام باع أسراراً ، لا تُقَدَّر بثمن ، حُكِمَ على بيرمنغهام بالسجن لمدة (٢١) سنة ، لكنه أمضى منها فعليّاً (٧) سنوات ، وأطلق سراحه بثلث المدة لحسن سيره وسلوكه . كما سُجِنت زوجته مورين لمدة سنتين ونصف بعد أن اعترفت : «لقد دفعته ليصبح جاسوساً ، وأعطانا الروس أموالاً كالماء» . وقد طلق بيرمنغهام زوجته أثناء سجنها ، وأرسل أولادهما الأربعة الى إصلاحيّة محليّة .

استخدم جورجيو رينالدي وزوجته أنجيلا ماريا مهارتهما في القفز المظلي للتجسس لصالح روسيا . فتجوّل القافزان المظليان عبر بلدان حلف شمال الأطلسي يقدمون ألعاباً بهلوانية ، وخلال ذلك قاما بتصوير مواقع المدافع السرية وأبنية المطارات الحساسة الأهمية . وبعد اعتقالهما في عام ١٩٦٧ ، تم تطويق ٢٩ جاسوس آخرين في ٧ بلدان بنتيجة اعترافات جورجيو .

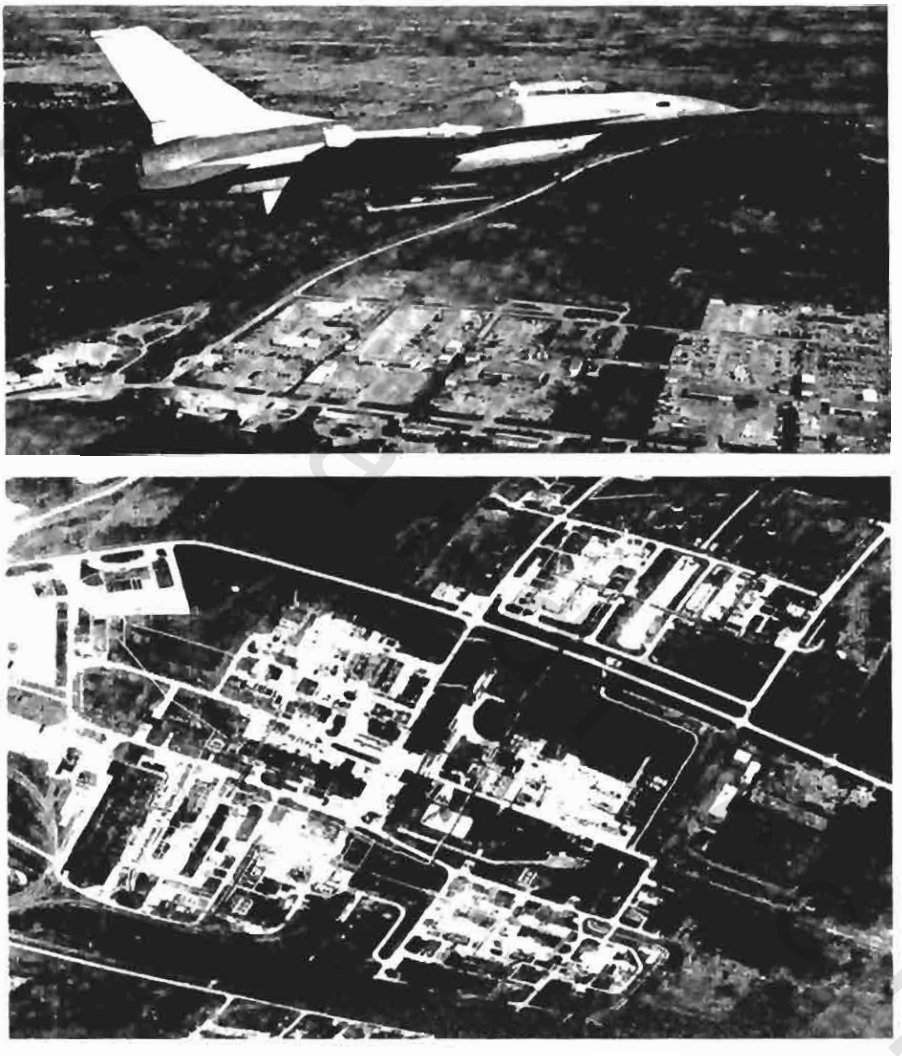

- في الأعلى : طائرة تجسس -
- في الأسفل : صورة القاعدة العسكرية التي أخذتها طائرة التجسس .